



# فتح سمرقند

بقلم اللواء الركن : محمود شيت خطاب





بقلم اللواء الركن : محمود شيت خطاب

# فتح سمرقند



تقع سمرقند على بعد مائة وخمسين ميلا من شرق مدينة ( بخارى ) ، وتقع على مسافة قصيرة من ضفة نهر ( السُغْد ) الجنوبية على نشز من الأرض .

يحيط بالمدينة سور حوله خندق عميق ، ولها قلعة مرتفعة عن الأرض ، وللمدينة عدة ضواح كبيرة بالقرب من النهر ، تحفّ بها البساتين والأشجار ، وقليل من دورها تخلو من البساتين أو المياه الجارية ، وفي قلعتها الحصينة تقع دار الامارة ، ويقع الجامع في داخل المدينة .

وللمدينة الكبرى اثنا عشر بابا ، من الباب إلى الباب فرسخ واحد ، وعلى أعلى السور آزاج وأبراج للحرب ، وهذه الأبواب من حديد ، وللمدينة الأصلية أربعة أبواب هي : باب الصين في جهة المشرق ينزل عنه بدرج كثيرة العدد ، مطلّ على واد السُغْد ، وباب بخارى من جهة الشمال ، وباب ( النوبهار ) من جهة الغرب ، والباب الكبير ويعرف أيضا بباب ( كِش ) من جهة الجنوب .

والبلد كله : طرقه وسوقه وأسواقه إلا القليل ، مفروش بالحجارة ، وأسواقها مجمع التجارات ، زاخرة بالسلع الواردة إليها من جميع الأنحاء ، فقد كانت فرصة تجارية عظيمة لبلاد (ما وراء النهر) ومن جملة ما اشتهرت به الورق السمرقندي ، فهو يُحمل منها إلى سائر بلاد الشرق ، وكانت صناعته قد دخلت إليها من الصين .

وهواء سمرقند رطب ، ولكل دار في المدينة وضواحيها بستان ، حتى إنك إذا صعدت أعلى القلعة ، لم تَبْدُ المدينة للنظر لاستتارها بالبساتين والأشجار .

**ومساحة المدينة ألفان وخمسمائة جريب (٧٥٠ اكرا) فيها الأسواق والحمامات ، والمساكن الكثيرة التي يدخل إليها الماء الجاري في نهر من رصاص ، وهو نهر بنيت عليه مسناة عالية من حجارة يجري عليها من الصفارين حتى يدخل من باب (كش) ، ووجه هذا النهر رصاص كله ، ودورها مبنية بالخشب والطين ، والمدينة مكتظة بالسكان .**

وضواحي سمرقند تمتد بامتداد ضفة النهر في بسيط من الأرض ، وعليها سور نصف دائري طوله فرسخان ، يحيط بها من ناحية البر ، ويحيط بها النهر من ناحية الشمال إحاطة القوس بالوتر ، فيتم بذلك خط دفاعها .

وليس في الأرض مدينة أنزه ولا أطيب ولا أحسن مشرفا من سمرقند ، وقد شبهها حصين بن المنذر الرقاشي فقال : «كأنها السماء للخضرة ، وقصورها الكواكب للأشراف ، ونهرها المجرّة للإعتراض ، وسورها الشمس للأطباق» .

وقال أحمد بن واضع في صفة سمرقند :

**علت سمرقند أن يُقال لها**
**زين خراسان جنة الكُوَر**
**أليس أبراجها معلقة**
**بحيث لا تستبين للنظر**
**ودون أبراجها خنادقها**
**عميقة ما تُرام من ثغر**
**كأنها وهي وسط حائطها**
**محفوفة بالظلال والشّجر**
**بدر وأنهارها المجرّة و**
**آطام مثل الكواكب الزهر**

**وقال البستي :**

**للناس في أخراهم جنة**
**وجنّة الدنيا سمرقند**
**يا من يسوّي أرض بلْخ بها**
**هل يستوى الحنظل والقند ؟**

## فتح سعيد بن عثمان بن عفان التمهيدي

**تولى سعيد بن عثمان بن عفان خراسان سنة ست وخمسين للهجرة (٦٧٥م) لمعاوية بن أبي سفيان ، فقطع النهر (جيحون) إلى سمرقند ، فكان أول من قطع النهر من العرب .**

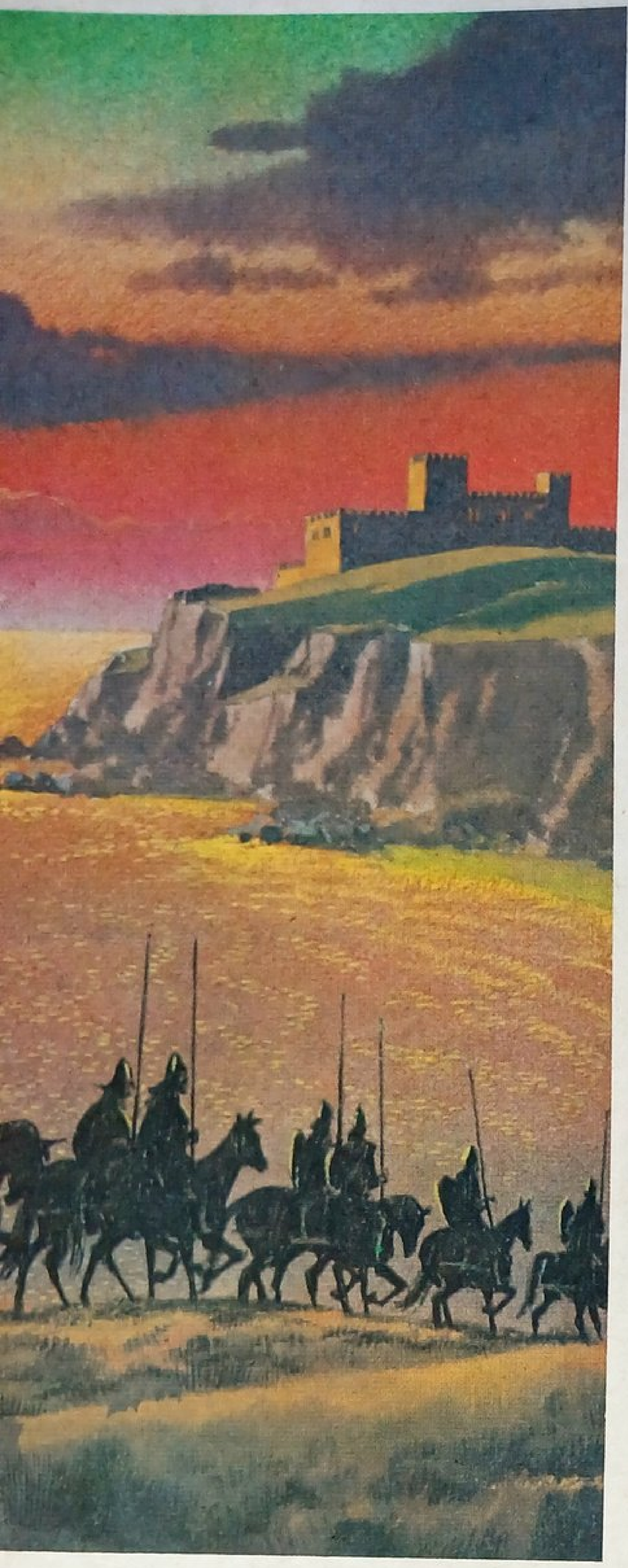
**وبلغ (خاتون) وهي امرأة أفضى إليها يومئذ ملك بخارى عبور سعيد النهرَ ، فصالحته .**

**وأقبل (السغد) ويُطلق على سكان منطقة (السّغد) هذا الاسم ، في مائة ألف وعشرين ألفا ، فالتفوا بسعيد في منطقة بخارى .**

وحين أقبلت الحشود لحرب المسلمين ندمت (خاتون) على الصلح ، فنكثت العهد ، ولكن بعض الجموع المحتشدة لقتال المسلمين انصرفوا ، فتضعضعت معنويات الآخرين ، فلما رأت خاتون ذلك أعادت الصلح ، فدخل سعيد مدينة بخارى .

وغزا سعيد سمرقند ، فأعانته خاتون بأهل بخارى ، فنزل على باب سمرقند ، وحلف ألا يبرح أو يفتحها ، فقاتل أهلها ثلاثة أيام ، وكان أشدّ قتالهم في اليوم الثالث حيث فُقئت عينه ، ولزم العدو سمرقند وقد فشت فيهم الجراح ، فأتاه رجل دله على قصر فيه أبناء ملوكهم وعظمائهم ، فسار إليهم وحصرهم .

وخاف أهل سمرقند أن يفتح سعيد ذلك القصر عنوة ويقتل من فيه ، فطلبوا الصلح ، فصالحهم سعيد على سبعمائة ألف درهم ، وعلى أن يعطوه رهنا من أبناء عظمائهم ، وعلى أن يدخل



المدينة ومَنْ شاء ويخرج من الباب الآخر ، فأعطوه خمسة وعشرين من أبناء ملوكهم ، ويقال : أنهم أعطوه أربعين من أبناء ملوكهم ، ويقال : ثمانين ، وكان معه من الأمراء : المهلب بن أبي صفرة الأزدي ، واستشهد معه يومئذ، قُثَم بن العباس بن عبد المطلب ، وكان يشبّه بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو آخر مَنْ طلع من لحد النبي صلى الله عليه وسلم .

لقد مهد سعيد لفتح منطقة (السُّغْد) وحاضرتها سمرقند ، وكان فتحه في هذه المنطقة فتحا تمهيديا .



## فتح قتيبة بن مسلم الباهلي

**تولى قتيبة بن مسلم الباهلي (خراسان) للحجاج بن يوسف الذي كان أمير العراقين، وكان تولية قتيبة سنة ست وثمانين للهجرة في أيام الوليد بن عبد الملك بن مروان.**

**وانتقل قتيبة من نصر إلى نصر في بلاد (ما وراء النهر) فاستعاد فتح ما انتقص منها، وفتح بلادا شاسعة جديدة فتحا جديدا.**

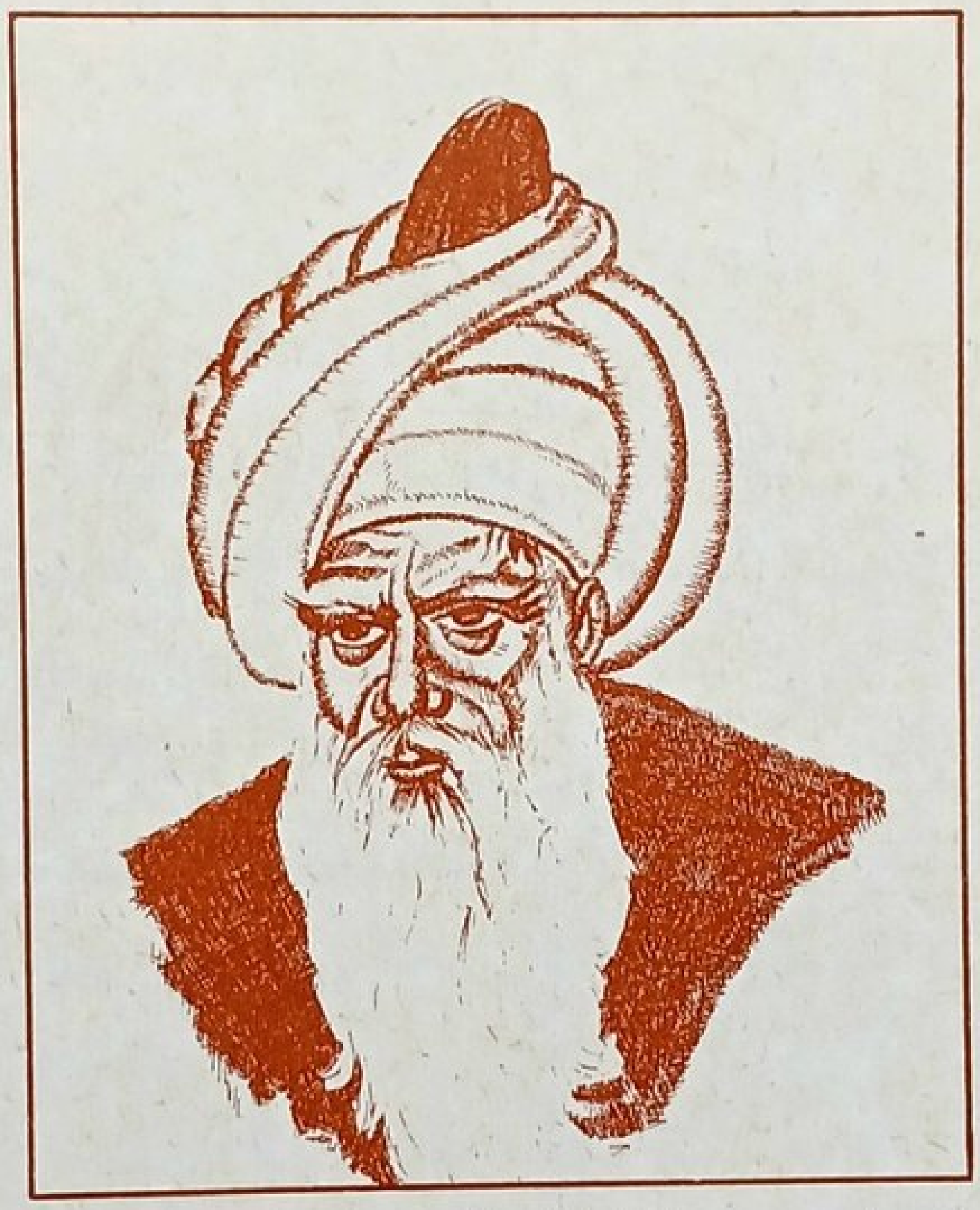
**ولما فتح قتيبة (بخارى) سنة تسعين للهجرة (٧٠٨م) هابه أهل (السغد)، فعرض (طرخون) ملك (السغد) الصلح على قتيبة، فأجابه إلى ما طلب وصالحه، فرجع طرخون إلى بلاده.**

ولما عاد قتيبة أدراجه من غزوته، قالت السغد لطرخون إنك قد رضيت بالذل واستطبت الجزية وأنت شيخ كبير، فلا حاجة لنا فيك.. فحبسوه، وولوا (غوزك)، فقتل طرخون نفسه، وكان ذلك سنة احدى وتسعين للهجرة (٧٠٩م).

ولم يكن قتيبة ليسكت عن هذا الذي فعله (السغد) بحليفه طرخون، فقرر أن يلقن السغد درسا قاسيا ويفتح حاضرتهم سمرقند.

وكان قد صالح بلاد (خوارزم)، فقام إليه المجشر بن مزاحم السلمي وقال له سرا: «إن أردت السغد يوما من الدهر، فانهم آمنون من أن تأتيهم من عامك هذا، وإنما بينك وبينهم عشرة أيام» فقال قتيبة: «أشار بهذا عليك أحد ؟» قال: «لا»، قال: «فأعلمته أحدا»، قال: «لا!»، فقال قتيبة: «والله لئن تكلم به أحد لأضربن عنقك».

وأقام قتيبة يومه ذلك، فلما أصبح من الغد، دعا أخاه عبد الرحمن بن مسلم وقال «سر في الفرسان والرماة، وقدم الأثقال إلى (مرو)»، فوجه الأثقال إلى (مرو) ومضى عبد الرحمن يتبع الأثقال يريد (مرو) يومه كله، فلما أمسى كتب إليه قتيبة: «إذا أصبحت فوجّه الأثقال إلى



(مرو)، وسر بالفرسان والرماة نحو (السغد)، واكتم الأخبار، فإني بالأثر».

وخطب قتيبة الناس، فقال: «إن الله قد فتح لكم هذه البلدة ـ يريد خوارزم ـ في وقت الغزو فيه ممكن، وهذه السغد برجلها، قد نقضوا العهد الذي كان بيننا، ومنعونا ما كنا صالحنا عليه (طرخون) وصنعوا به ما بلغكم، وقال تعالى: **﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾**، **فسيروا على بركة الله**، فإني أرجو أن يكون (خوارزم والسغد) كالنضير وقريظة، وقال تعالى **﴿وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديرا﴾**.

وبلغ قتيبة (السغد) بعد عبد الرحمن بثلاث ليال أو أربع، فقال **﴿فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين﴾**.

وقدم معه أهل (خوارزم) و (بخارى)، فحصر السغد شهرا وقاتلهم في حصارهم مرارا من وجه واحد.

وكتب أهل (السغد) إلى ملك (الشاش) وملك (فرغانة): «أن العرب إن ظفروا بنا عادوا إليكم بمثل ما أتونا به، فانظروا لأنفسكم، ومهما كان عندكم من قوة فابذلوها».

واستقر رأي ملك الشاش وفرغانة على إمداد أهل السغد، فأرسلوا إليهم: «أرسلوا من يشغلهم حتى نبيّت عسكرهم»، وانتخبوا من أولاد الملوك وأهل النجدة من أبناء المرازبة والأساورة والأبطال، وأمروهم أن يأتوا عسكر قتيبة ويبيّتوه، لأنه مشغول عنهم بحصار سمرقند.

وبلغ قتيبة الخبر، فانتخب من عسكره أربعمائة، وقيل ستمائة من أهل النجدة والشجاعة وأعلمهم الخبر، وأمرهم بالمسير إلى عدوهم، فساروا وعليهم أخوه صالح بن مسلم، ونزلوا على فرسخين من عسكر قتيبة على طريق القدم.

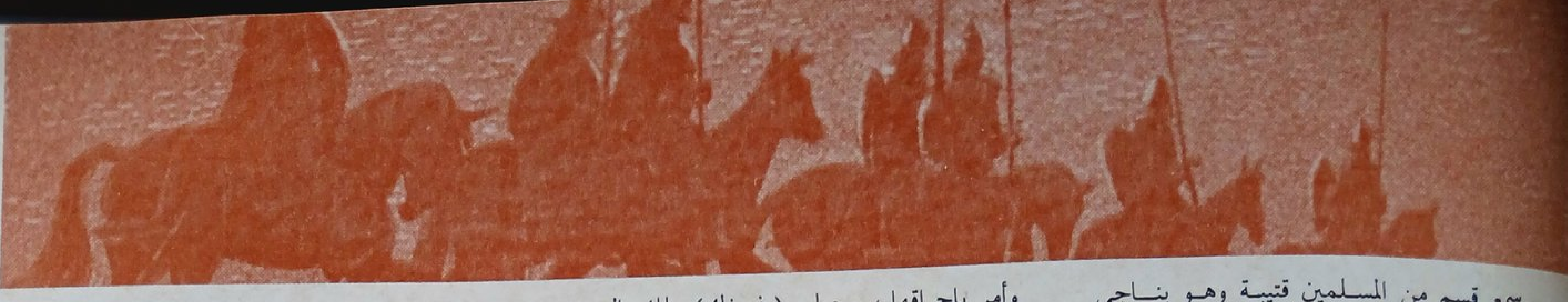
وأرسل صالح عيونه، فأخبروه أن العدو سيصل إليه ليلا، ففرق خيله ثلاث فرق: جعل كمينين في موضعين، وأقام هو وبعض فرسانه على قارعة الطريق.

وطرقهم العدو ليلا، وهم لا يعرفون بمكان صالح، وهم آمنون في أنفسهم من أن يلقاهم أحد دون العسكر، فلم يعلموا بصالح حتى غشوه، فشدوا على قوته، حتى إذا اختلفت الرماح بينهم خرج الكمينان فاقتتلوا، قال بعضهم: «إنا لنقاتلهم، إذا رأيت تحت الليل قتيبة وقد جاء سرا، فضربت ضربة أعجبتني، فقلت: كيف ترى بأمي وأبي؟!» فقال: «اسكت فضّ الله فاك».

واستطاع فرسان صالح التغلب على عدوهم، فلم يفلت إلا الشريد، وأسر بعض الأسرى وغنموا خيلهم وسلاحهم.

وعلم السغد باندحار القوة التي جاءت مددا لهم، فأثر ذلك في معنوياتهم أسوأ الأثر.

ونصب قتيبة حول سمرقند المجانيق فرماها بها، وثلم ثلمة فسدوها بغرائر الدخن، وقام عليها رجل فشتم قتيبة ـ وكان مع قتيبة قوة رماة، فأمر منهم رمى شاتمه، فلم يخطئ عينه.



وسمع قسم من المسلمين قتيبة وهو يناجي نفسه قائلا : «حتى متى يا سمرقند يعشعش فيك الشيطان ؟ ! أما والله لئن أصبحت لاحاولن من أهلك أقصى غاية» .

**وأصبح قتيبة ، فعرض جنده ، وميّز أهل الناس ، فجمعهم يعرضهم بنفسه ، ودعا العرفاء فجعل يدعو برجل رجل ، فيقول : «ما عندك ؟ !» فيقول العريف : «شجاع» أو يقول «مختصر» أو يقول «جبان» فأخذ قتيبة خيل الجبناء وجيد سلاحهم وأعطاه الشجعان والمختصرين ، وترك للجبناء رثّ السلاح .**

**وأمر الناس بالجد في القتال ، فقاتلوهم أشد قتال .**

وأمرهم قتيبة أن يبلغوا الثلمة التي في المدينة قائلا : «ألحّوا عليهم حتى تعبروا على الثلمة» ، فقاتلوهم حتى صاروا على ثلمة المدينة .

ورماهم السغد بالنشاب ، فوضعوا أترستهم على وجوههم ولم يبرحوا ، فأرسل السغد إلى قتيبة انصرف عنا اليوم حتى نصالحك غدا ! فقال : «لا نصالحهم إلا ورجالنا على الثلمة ، وقيل بل قال : جزع العبيد انصرفوا على ظفركم» .

وصالحهم قتيبة في الغد على ألفي ألف ومائتي ألف مثقال في كل عام وأن يعطوه تلك السنة ثلاثين ألف فارس ، وأن يخلوا المدينة لقتيبة ، فلا يكون لهم فيها مقاتل ، فيبني فيها مسجدا ، ويدخل ويصلي ويخطب ويتغدى ويخرج .

وتم الصلح ، وأخلوا المدينة ، وبنوا المسجد ، فدخلها قتيبة في أربعة آلاف انتخبهم ، فصلى في المسجد ، وخطب ، وأكل طعاما ، ثم أرسل إلى (السغد) : «من أراد منكم أن يأخذ متاعه فليأخذه ، فإني لست خارجا منها ، ولست آخذ منكم إلا ما صالحتكم عليه ، غير أن الجند يقيمون فيها» .

وقيل : إنه شرط عليهم في الصلح مائة ألف فارس وبيوت النيران وحلية الأصنام ، فقبض ذلك ، فكانت كالقصر العظيم ، فأخذ ما عليها وأمر باحراقها ، وجاءه (غوزك) ملك السغد ، فقال : «إن شكرك عليّ واجب ! لا تتعرض لهذه الأصنام ، فإن فيها أصناما من أحرقها هلك !!» فقال قتيبة : «أنا أحرقها بيدي» ، فدعا بالنار ، ثم كبّر وأشعلها ، فاحترقت ، فوجدوا من بقايا مسامير الذهب خمسين ألف مثقال !!

**وانتقل غوزك ومن معه عن سمرقند ، فتلا قتيبة قوله تعالى : ﴿ وأنه أهلك عادا الأولى ، وثمود فما أبقى ﴾ .**

**وأرسل قتيبة إلى الحجاج بفتح سمرقند ، ثم رجع إلى (مرو) وكان ذلك سنة ثلاث وتسعين للهجرة (٧١١م) .**

## عدل الإسلام

كان أهل خراسان يقولون : إن قتيبة غدر بأهل سمرقند ، فملكها غدرا .

ذلك لأن من شروط صلح قتيبة : أن يخلوا المدينة لقتيبة ، فلا يكون لهم فيها مقاتل ، فيبني فيها مسجدا ، ويدخلها ويصلي في المسجد ، ويخطب فيه ، ويتغدى ، ويخرج .

ولكنه بعد أن دخلها ، أرسل إلى أهلها : بأنه غير خارج منها ، وأنّ الجند المسلمين يقيمون فيها .

وقد اعتبر أهل خراسان هذا من قتيبة غدرا .

ولكن قتيبة لم يعتبر بقاؤه في المدينة غدرا ، وعذره أن أهل سمرقند صالحوه سنة تسعين للهجرة (٧٠٨) ، وكان الذي تولى الصلح معه ملك سمرقند وملك السغد وهو (طرخون) ، ولكن السغد نكثوا وحبسوا ملكهم (طرخون) وولوا (غوزك) مكانه ، فعاد إلى السغد وحاضرتهم سمرقند قتيبة سنة ثلاث وتسعين للهجرة (٧١١م) ، وحاصر سمرقند وحارب (غوزك) الذي تولى نكث العهد وانتصر على السغد ، فكان السغد هم الذين غدروا ونكثوا والبادئ أظلم .

ومات الوليد بن عبد الملك بن مروان سنة ست وتسعين للهجرة (٧١٤م) ، فخلفه سليمان بن عبد الملك ، فقتل قتيبة في تلك السنة .

ومات سليمان سنة تسع وتسعين للهجرة (٧١٧م) ، فخلفه عمر بن عبد العزيز ، فقال أهل سمرقند لعاملهم في أيام عمر بن عبد العزيز : «قتيبة ظلمنا وغدر بنا فأخذ بلادنا ، وقد أظهر الله العدل والإنصاف ، فأذن لنا فليقدم منّا وفد على أمير المؤمنين» فأذن لهم .

ووجّه أهل سمرقند وفدا إلى عمر بن عبد العزيز ، فكتب لهم إلى عامله على مدينتهم حينذاك — سليمان السَّري — : «أن أهل سمرقند شكوا ظلما وتحاملا من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم فإذا أتاك كتابي ، فأجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم ، فان قضى لهم فأخرج العرب إلى معسكرهم كما كانوا قبل أن يظهر عليهم قتيبة» .

وجاء كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عامله سليمان ، فأجلس لأهل سمرقند جُمَيع بن حاضر القاضي ، فقضى : أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء ، فيكون صلحا جديدا أو ظفرا عنوة .

ولكن أهل السّغد قالوا : بل نرضى بما كان ولا نحدث حربا . وتراضوا بذلك .

**ذلك هو سر الفتح الإسلامي : قادة قادرون يقودون رجالهم من الأمام ، وجنودهم مبادئ الإسلام تمشي على الأرض ، ومجاهدون يخوضون حربا عادلة لإعلاء كلمة الله .**

**وعدل مثالي ، وقضاة يحكمون للمغلوبين لا للغالبين ، ومجتمع يسوده العدل .**

**ذلك هو سر الفتح الإسلامي الذي حمل الفاتحون به الإسلام إلى الناس ، ولم يحملوهم عليه بهذا الفتح .**

**لذلك ذهبت انتصارات غير المسلمين قديما وحديثا ، وبقيت انتصارات المسلمين تعمل عملها في القلوب والعقول معا لأنه كان انتصار مبادئ لا انتصار سيوف .**

**وستبقى حتى يرث الله الأرض ومن عليها .**

# الحرس الوطني

مجلة عسكرية ثقافية فصلية تصدر عن إدارة العلاقات العامة بالحرس الوطني السعودي



العدد الثالث ٠ السنة الاولى ٠ المحرم ١٤٠١هـ ٠ نوفمبر ١٩٨٠م